واقع الممارسات البيداغوجية
في النظام التعليمي الجامعي الجزائري
في ظل المستجدات التربوية الحديثة .

أ. معمر الدين عبد القادر
المركز الجامعي عين تموشنت

ميّز الظرف الذي جرى فيه إصلاح النظام التعليمي الجامعي في الجزائر جملة من العوامل والمتغيرات الداخلية والخارجية جعلته أمام تحديات يتعين رفعها قصد التمكن من مواكبة الحاضر والمستقبل وتحقيق الشروط العلمية والتكنولوجية التي يمكنها ضمان تنمية مستدامة وتحسين وجاهة التعليم أمام حاجيات المجتمع الجزائري الحالي .

غير أن الممارسات البيداغوجية في الجامعة الجزائرية ظلت بعيدة عن الأهداف المطلوبة ولم تتجاوب مع متطلبات النوعية والكفاءة في جوانبها الأكادمية والبيداغوجية .

ذلك أن الممارسات البياغوجية اقتصرت على إيصال المحتويات المعرفية والمهارات التكنولوجية للطلبة فحسب، ولم تسعى إلى إكسابهم كفاءات تمكنهم من توظيفها في حياتهم. والمنظومات التي لا تفيد الناس في حياتهم، منظومات فاشلة أثبتت فشلها التجارب اليومية .

ومن هنا يمكن طرح التساؤلات التالية :

- ماهو واقع الممارسات البيداغوجية في الجامعة الجزائرية ؟

- هل تقوم الممارسات البيداغوجية في الجامعة الجزائرية على منطق التعلم أم منطق التعليم ؟

- أي مقاربة نظرية بيداغوجية يمكن ممارستها لضمان الجودة في التعليم ؟

- ما علاقة التعلم بأثر التعلم ؟

تلك هي جملة من التساؤلات نسعى للإجابة عنها في مداخلة متواضعة بمناسبة الملتقى الوطني الأول للخطاب التعليمي الجامعي بالمركز الجامعي بعين تموشنت يومي 2014/26/25.

كثر الحديث في السنوات الأخيرة عن تدني مستوى الطالب الجامعي في الجزائر وتعددت الآراء والتفسيرات ووجهات النظر حول العوامل الحقيقية التي تقف وراء ذلك. فهل هو يعود إلى المنهج التعليمي المطبق ؟ أم السبب في الطرائق البيداغوجية المستخدمة في الفصل؟ وهل للطالب نصيب في هذا القصور؟ أم هنالك عوامل أخرى وراء ذلك ؟

لا شك أن الأسباب المذكورة تشترك مجتمعة في تشكيل الوضع الحالي الذي أضحى لا يبشر بمستقبل واعد. ونعتقد أنه آن الأوان لإعادة النظر في النظام التربوي وضرورة إصلاحه إصلاحا شاملا

بإشراك كل الأساتذة والمختصين، وطلبة، وجمعيات مدنية، ومناقشة مختلف القضايا بغرض بناء منظومة تعليمية قوية بمقاييس عالمية.

هناك فجوة موجودة بين المؤسسة التعليمية التي تسعى إلى تلقين المتعلمين المعارف، والمجتمع الذي ينتظر من المؤسسة أن تعد له أجيالا تلبي حاجاته المختلفة. إن الطلبة تعودوا من الصغر على تلقي المعارف بطريقة تلقينية وحفظها عن ظهر قلب لاستظهارها يوم الامتحان، وليست لهم القدرة على التصرف وتدبر أحوالهم في وضعيات من الحياة اليومية. 1

إن الحفظ يسهم في اكتساب المعارف وتوسيع المدارك إذا ما أحسنا الإفادة منه في إثراء ثقافتنا العرفانية والاغتراف منها عند الحاجة، وفي إنتاج مختلف التعابير الكتابية والشفوية. وقد كان النقاد العرب القدامى يصطنعون نظرية نسيان المحفوظ، أي أن الأديب عليه أن :« يحفظ كثيرا من النصوص الأدبية ثم يتناساها إن أراد أن يكون أديبا كبيرا »2. غير أن ما ألفه وتعود عليه الطالب الجامعي هو محو كل ما اختزنه في الذاكرة لاعتقاده أنه أضحى غير مجد ما دام مرتبطا بالنقطة فقط. هذا إذا سلمنا أن الطالب يكلف نفسه عناء الحفظ والمذاكرة، وتحاشينا الحديث عن الغش في الامتحان الذي انتشر في أوساط الطلاب كالنار في الهشيم. ولما يتخرج هؤلاء الشبان من الجامعة لا يستطيعون توظيف معارفهم في الحياة اليومية، ولا يستغلون تلك الثروة في الواقع العملي . ومن ذلك أنهم :

- يستنطقون النصوص ويعجزون عن إدراك معانيها .

- يدرسون قواعد النحو والصرف غير أنهم لا يستطيعون توظيفها بشكل صحيح.

- يتحدثون بالعامية للتعبير عن أفكارهم.3

- عزوف الطلبة عن المطالعة الحرة نظرا لعدم تعودهم عليها .

وقد يكون من أسباب الضعف نوعية التعليم الممنوح للطلبة والذي لا زال تقليديا لم يتطور وفق المستجدات التربوية الحديثة. حيث يعمد كثير من الأساتذة إلى:

- استعمال طريقة الإلقاء التي لا تقوم على الشرح مع احتكار كل الوقت المخصص للحصة دون إتاحة الفرصة للطلبة للمناقشة والنقد والتحليل كأن الأستاذ المصدر الوحيد للمعرفة. فهو لا زال يعتقد أن دوره يقتصر على إرساء المعارف والمهارات لدى المتعلمين وأن لا حاجة أن يتعلم هؤلاء كيف يدمجون معارفهم ومهاراتهم المكتسبة لمواجهة التحديات وحل الوضعيات المختلفة.

- عدم استعمال لغة الحوار والمناقشة وإبداء الرأي.

- استعمال العامية مع الطلبة أو السماح لهم باستعمالها داخل الفصل.

- التشجيع على الحفظ والاستظهار في عملية التقويم. فنظام الامتحانات على الشكل المعمول به حاليا، لا يميز بين الطالب المجتهد والذكي، وبين الطالب العاجز والمتقاعس.

- إهمال الجانب التطبيقي والاكتفاء بالدراسة النظرية.

- عدم التنسيق بين الأستاذ المحاضر والأستاذ المطبق.4

- عدم استعمال الدافعية .

وفي ضوء ما تقدم يتضح أن الممارسات البيداغوجية المستعملة في بعض الجامعات الجزائرية قائمة على التعليم لا التعلم. وهي ترجع بذلك إلى مدرسة المضامين التي تجعل من المتعلم ناقلا سلبيا للمعارف ولا تشركه في عملية التعلم، كما تجعل من المعلم مصدرا أساسيا للمعرفة وملقنها. فما التعلم وما أثره ؟

للتعلم مفهوم واسع ومنه:

- الرفع من حجم معلومات المتعلم.
- هو نشاط يفترض السعي إلى المعرفة.
- هو تعديل مستمر للسلوك.
- هو تجنيد الموارد لحل المشكلات.
- هو تصحيح للتصورات الخاطئة.

فليس المقصود بالتعلم إذن مجرد حفظ معلومات معينة وتذكرها، إنما المقصود به إحداث تغيير مستمر في السلوك نحو الأفضل، والقدرة على انجاز عمل ما بشكل سليم. أما بالنسبة للمتعلم فهوالفهم، أي تفسير الخطاب وتقديم معناه، وهو أيضا إعداد التصورات الذهنية

وتحويلها وتثبيتها، وبعبارة أخرى، هيكلة النظام المعرفي في الدماغ. وللتعلم مبادئ نذكر منها:

- يتم التعلم بالمشاركة مع الآخرين (العمل بالأفواج).
- يتعلم الفرد انطلاقا من تصوراته.
- يتحقق عندما يكون للتعلمات قيمة ودلالة
- يرقى عندما يكون الوسط مؤثرا. 5

ما هو فعل التعلم ؟

- التعلم هو إكساب المتعلم معلومات وخبرات جديدة تؤهله لمواجهة التحديات ومناقشة المجتمع على أساس الحقائق العلمية.

- التعلم بحسب (بياجي) 6 هو عملية تنظيم ذاتية تؤدي إلى فهم العلاقات بين عناصر المفهوم الواحد وفهم كيف يرتبط المفهوم المحدد بالمفاهيم التي سبق تعلمها .

- التعلم عملية ذاتية محضة، تستند على الترميز وإشراك الحواس كلها لاستدلال المعاني في الخريطة الذهنية .

- التعلم يفيد النمو أي البناء الذاتي وتشييد المستقبل باكتساب الكفاءات الضرورية للاعتماد على النفس

- التعلم معناه تجنيد المكتسبات وترقية العلاقة معها، فالمعرفة تستند إلى التصورات القبلية .

- التعلم معناه التآلف الاجتماعي لأن المعرفة اجتماعية قبل أن تصبح فردية، ففي المدرسة يبدأ احتكاك الطفل مع أقرانه وزملائه فتتسع دائرة العلاقات الاجتماعية لديه تدريجيا لتبلغ حدها الطبيعي. وقد يحلو لأحدنا أن يسأل: لماذا نتعلم؟ .

أننا نتعلم للتكيف مع الوسط الاجتماعي، وللإنشاء والإبداع. فالتعلم ليس للمعرفة فقط بل للعمل أيضا، ويكون الهدف من التعلم كذلك هو تحسين مستوى المعيشة. ومن العوامل المؤثرة في التعلم نذكر ما يلي:

أ) العوامل الداخلية :

- وتشمل درجة نضج المراكز العصبية عنده
- مستوى نموه العقلي والعاطفي والحركي
- مدة الاستيعاب عنده ودرجة الاستعداد للتعلم

ب) العوامل الخارجية :

يتعلق التعلم ببيئة المتعلم حيث:

- وضوح الأهداف
- درجة استثارة المحيط الاجتماعي للتعلم
- مستوى الصعوبات
- معرفة النتائج والأداء

كيف نتعلم ؟

هناك نوعان للتعلم هما :

أ- التعلم غير المقصود -عفوي-

هو التعلم الذي يتكفل بالمحافظة على وجود الإنسان كالأكل والمشي والكلام وتطور النضج العقلي والجسمي.

ب- التعلم المقصود:

ظهر التعلم المقصود عندما تأكد الإنسان أن الحياة لا تكفي وحدها، وأنه من اللازم التعلم عن طريق المدرسة، ثم ظهر الابتكار للأشياء كالكتابة والرسم والرياضيات. فعلوم التربية تهتم بعلاقات الإنسان مع الممارسات الاجتماعية، كما يتطلب هذا من التعلم مشروعا لتشكيل مواطن صالح .

وقد رافق التعلم أهم المقاربات التاريخية لنماذج التعلم نذكر منها:

1- النموذج التلقيني:

هو أسلوب قديم في الممارسة يركز على المادة من حيث مضمونها ، ويعتبر المتعلم ناقلا سلبيا للمعرفة حيث عليه الانتباه والاكتساب والطاعة للمعلم، ويعتبر هذا الأخير مصدرا وحيدا للمعرفة .

ولعل أي يكون من أهم مميزات النموذج التلقيني تركيزه على الذاكرة. ونعني بذلك حشو ذهن المتعلم بالمعلومات وحفظها واسترجاعها عند الضرورة. كما يعتمد أصحاب هذا الاتجاه على

التلقين. أما المعرفة فهي موضوع خارج عن العقل، وأما التقويم فإنه يقتصر على عمليتي الحفظ والاسترجاع.

2- النموذج السلوكي :

سيطرت المدرسة السلوكية على علم النفس لمدة طويلة من الزمن وكانت تهتم بسلوك التعلم القابل للملاحظة والقياس . والتعلم في نظر أصحاب هذا الاتجاه هو بناء سلوك يتوافق مع المحيط عن طريق المثيرات الخارجية التي تلتقط بالحواس. وهي نظرة ترتبط بنتائج (بافلوف) حول الاشتراط .7

مميزات النموذج السلوكي :

من مميزات النموذج السلوكي أن التعلم يتم عن طريق التدريب والممارسة والاشتراط المدعم بالمثيرات. كما أن المعارف تكتسب وفق عمليات متتابعة ومتلاحقة، حيث يتم الانتقال من مستوى معرفي إلى آخر عن طريق التعزيز الإيجابي للاستجابات أو السلوكات . يتم التأكد من حالة بلوغ الأهداف وتحقيقها بواسطة شبكة التقويم .

إن النموذج السلوكي ينادي بتعلم وفق أهداف مقطعة ومفتتة وهذا ما جلب عليه موجة من الانتقادات والمآخذ كان لها أثرها البارز في تبني نظريات تربوية أخرى .

3- النموذج البنائي :

يعتبر بياجي من الرواد المدرسة المعرفية أو البنائية. فقد أسهم كثيرا في النموذج البنائي، وتصدى لقضايا التعلم ومشكلاته. والتعلم في تصوره هو

عملية تنظيم ذاتية تؤدي إلى فهم العلاقات بين عناصر المفهوم الواحد وكيف يرتبط هذا المفهوم بالمفاهيم التي سبق تعلمها.8 وركز بياجي على العمليات العقلية التي تحدث في الذهن. فالتعلم في اعتقاده، ليس مرتبطا بالاستجابة للمثيرات فقط، ولكنه يعتمد على تصورات المتعلم وتصحيحها باستمرار. كما اعتبر بياجي النمو عاملا أساسيا في بناء التعلم.

وإذا كان الاتجاه البنائي يعد طريقة للتفكير حول المعرفة ، فهو أيضا مرجع لبناء المناهج الحديثة، والنماذج التعليمية والتعلمية . ومن بين أهم مميزات هذا الاتجاه:

- الربط بين النمو والتعلم.

- الانتقال من النمو الثنائي إلى النمو الثلاثي. أي الانتقال من تفاعل فرد ومهمة إلى تفاعل فرد ومهمة وقرين. فالتفاعلات التي تنشأ بين المتعلمين في نشاطات التعلم، تسهم في إنماء كفاءاتهم الفردية، وتنتقل المعرفة من أستاذ – متعلم، إلى متعلم – متعلم. ويصبح دور الأستاذ مقتصرا على التوجيه والإرشاد. نمثل لذلك بهذا الشكل:

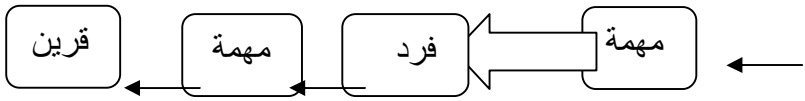

- الطابع الاجتماعي للوظائف العقلية العليا(الوظائف العقلية تنمى اجتماعيا)

- المتعلم يبني تعلماته بنفسه .
- التعلم يربط بين المكتسبات القبلية والجديدة .
- يتمثل دور الأستاذ في إعداد الوضعيات المشكلات والتقويم.

- الإفادة من النظريات التربوية الحديثة والبيداغوجيا الفارقة.
- التعلم التعاوني (العمل بالأفواج). 9
- استعمال شبكة تقويم تعنى بتقويم كفاءات وليس موارد. أي الحكم على مدى قدرة المتعلم على تجنيد موارده بشكل مدمج لحل وضعية مشكلة ما.10

هذه أهم خصائص المدرسة البنائية الاجتماعية والتي لفتت انتباه رجال التربية وعلماء الديداكتيك إلى ضرورة تغيير الممارسات البيداغوجية وفق منظور جديد يقدم المتعلم ويجعل منه محورا للعملية التعليمية التعلمية، ويسهم في تطوير قدراته في التحليل والتفكير والإبداع، ويشخص صعوباته قصد تحقيق الكفاءات المطلوبة، ورفع مستوى المردود الدراسي.

لقد مر على عملية الإصلاح التعليمي الجامعي الجزائري مدة زمنية كافية لاستقراء واقع مخرجاته ومعرفة مدى قدرته على تلبية حاجات المجتمع وتحقيق مستلزمات التنمية الوطنية.

فلا بد إذن من وقفة تقويمية لهذا النظام التعليمي الأكاديمي تقوم على التفكير والمراجعة الشاملة بغرض تحسين آلياته، وتطوير بنيته، تحقيقا للجودة النافعة، ودفعا للرداءة، وتجنب تدني التحصيل المعرفي، وضعف الأداء التعليمي التعلمي. ومن جملة الخطوات البيداجوجية التي أراها ضرورية للنهوض بالفعل التعليمي التعلمي، وتوفير الآليات المثالية لتنفيذه، أذكر ما يلي:

- اعتماد المقاربة بالكفاءات كمذهب بيداغوجي يسعى إلى تطوير كفاءات المتعلمين والتحكم فيها عند مواجهة التحديات في وضعيات مختلفة. إن حفظ المفاهيم والإجراءات وتذكرها أمر غير كاف لتحقيق التعلم لأن المشاكل التي تعترض الطالب يوميا ليست على المنوال والشكل المدرسي بالضرورة، بل هي وضعيات إشكالية ملموسة ومركبة يتطلب حلها توظيف وتجنيد عدة مفاهيم وقدرات ومهارات.

- الإفادة من الخبرات التعليمية الحديثة وتشجيع التعاون بين مختلف المؤسسات الجامعية الوطنية والدولية.

- تبني أساليب واستراتيجيات تعليمية فاعلة ومميزة لتحسين وتطوير التعلم، وتقديمها بطريقة تحقق الأهداف المطلوبة. ومن بين هذه الأساليب :

- الربط بين المادة والطالب طيلة المحاضرة، وذلك باستعمال أسلوب التشويق طلبا لليقظة وشد الانتباه.

- اعتماد طريقة العمل بالأفواج والتي تجعل المتعلمين يبحثون بأنفسهم، ويقارنون بين تمثلاتهم، ويطورون استقلاليتهم، ويعملون في جو من التعاون والتضافر لتحقيق هدف ما.

- إثارة الدافعية لدى المتعلمين لمساعدتهم على النشاط والاستمرار فيه، والتقليل من شعورهم بالتعب والملل والرتابة والنفور.

- التنسيق بين فرق البحث والمخابر الوطنية والتي تعنى بالخطاب التواصلي التعليمي، في جو من التكامل والتعاون.

- التقويم المستمر للنظام التعليمي في الجامعة الجزائرية ومعالجة الصعوبات التي يواجهها في هذا الشأن.

- توظيف مصادر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في تحضير الدروس وعرضها لجعل المادة أكثر فائدة ومتعة.

- تكوين الأساتذة الجدد لتمكينهم من مهارات التدريس الفعال وأساليب التبليغ الناجع، والاطلاع على النظريات التعليمية الحديثة التي تعنى بالتعلم وآلياته المختلفة وشروط حدوثه، والعوامل المساعدة على نجاحه.

المراجع:

1- إكزافيي روجرس، المقاربة بالكفاءات في المدرسة الجزائرية - تر: ناصر موسى بختي- الجزائر،**2006**،ص **17**

2- عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر**2007**، ص**250**

3- صالح بلعيد، ضعف اللغة العربية في الجامعة الجزائرية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر**2009**، ص**178.**

4- الرواسي(مجلة تربوية ثقافية)، العدد**1**، جانفي/فبراير**1991**، دار الشهاب للطباعة والنشر،الجزائر،**1991**، ص**5**

5- ينظر: - محمد الطاهر وعلي،الوضعية المشكلة في المقاربة بالكفاءات،ط**.4**، الورسم للنشر والتوزيع، الجزائر**2012** ، ص**50.**

6- جان بياجي **(1896)** بدأ نشاطه عام **1920** في معمله في جامعة – جينيف- ركز اهتمامه في أبحاثه على دراسة النمو العقلي والمعرفي، .شرع في دراسته معتمدا على تخصصه – علم الأحياء- حيث طبق قوانين الطبيعة على الإنسان.

7- ينظر: محمد طاهر وعلي، م.ن، ص**15**و**16.**

8- نواري سعودي أبو زيد، محاضرات في اللسانيات التطبيقية، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط**.1**،الجزائر**2012**، ص**50.**

9- إكزافيي روجرس، م.ن، ص**38**و**39.**

10- ينظر: محمد طاهر وعلي، الوضعية الإدماجية- التقويم في المقاربة بالكفاءات – الورسم للنشر والتوزيع، ط**.2**، الجزائر**1012**، ص**13**و**14.**